الجامعة العربية

في شعر حافظ ابراهيم

بقلم : الاستاذ محمد محمد الحوفي

وأي شيء غير الجامعة نريد أن نحدثك عنه في شعر حافظ ونحن العرب الآن لانرى إلا بأعين الجامعة ، ولا نسمع إلا بآذانها ، ولا نفكر الا بعقلها . انها المعجزة التي نعلق عليها آمالنا ، انها النار التي سنصليها للكلاب النابحة من حوالينا .

ومن الوفاء للخالدين من الشعراء ـأن نبسط على دول الجامعة وجيشها خاصة ـ حديث حافظ ابراهيم عن الجامعة ، وايمانه بقيمتها ، وحرارة دعوته الى تأليفها . وقد تعمدنا ان نذكر الجيش في هذا المقام ؛ لان حافظا كان ضابطا مصريا تخرج في المدرسة الحربية ، وعين في السلك الحربي بالسودان ثم اتهمه الانجليز مع زملائه بالثورة ، فأحيل الى الاستيداع. فليسمع كماة فلسطين شعر زميلهم الموهوب .

ونعتقد لو أن حافظا كان اليوم حيا لاستبق الى المعمعة المترقبة في فلسطين ، لينافح عن العروبة بصولجانه كما نافح عنها طوال حياته ببيانه .

وبعد :

فان الاشياء تولد في سجل الوجود قبل أسمائها ، وقد درسنا شعر حافظ فرأينا ان الجامعة العربية مولودة فيه منذ مايقرب من نصف قرن : كانت الوحدة العربية عقيدته يرجعها في قصيده عند كل مناسبة ، يتلهف عليها ، ويوالي الدعوة اليها ويريد من الدول العربية أن تؤلف من انفسها حلفا قويا أبياً تنسى فيه فروق الأديان والألوان .

ففي حفل اقيم لحافظ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة سنة ١٩٢٩ ، لايطيب له الا أن يتحدث عن الشرق ، ويتمنى أن تكون الدماء الجارية في عروقه هي المودة ، ويتحسر على تنكر الايام لمجده ؛ وقد كان العالم من قبل يرتج من زأرات أسده. ثم يوصي حافظ العرب ان يرضعوا ابناءهم افاويق الوطنية منذ ميلادهم حتى يكون للوطن والله مكان على في قلوبهم .

ولا يكتفي بالاجمال في طلابه للوحدة العربية ؛ بل يذكر أسماء الدول العربية ؛ وتحنان بعضها الى بعض. يقول

متى ارى الشرق ادناه وابعده　　عن مطمع الغرب فيه غير وسنان
تجرى المودة في أعراقه طلقا　　كجرية الماء في اثناء افنان
لافرق مابين بوذى يعيش به　　ومسلم ويهودي ونصراني
مابال دنياه لما فاء وارفها　　عليه قد أدبرت من غير إيذان
عبد الرشيد ببغداد عفا ومضى　　وفي دمشق انطوى عبد ابن مروان
ولاتسل بعده عن عبد قرطبة　　كيف انمحى بين أسياف ونيران
فعلموا كل حي عند مولده　　عليك لله والأوطان دينان
النيل وهو الى «الاردن» في شغف　　يهدى الى « بردى» اشواق ولهان
وفي «العراق» به وجد بدجلته　　وبالفرات وتحنان لسيحان

* * *

وفي حفل اقامه لتكريم بعض الاخوان السوريين بفندق شبرد بالقاهرة سنة ١٩٠٨ لايتحدث عن مصر وسورية الا باعتبارهما دعامتين من دعائم الشرق العربي ، يجعل الهلال شعارهما ؛ والعربية فخارهما ، والعرب آباءهما . .

يقول :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب　　هنا العلا وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لازالت ربوعهما　　قلب الهلال عليها خافق يجب
خدران للضاد لم تهتك ستورهما　　وان سألت عن الآباء فالعرب

ويمضي في ذكر الاواصر بين البلدين الى ان يقول بيته المشهور الذي تغنيه ام كلثوم في حفلة ملوك العرب بقصر عابدين العامر مع ابيات الاستاذ الاسمر . . !

هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم　　فصافحوها تصافح نفسها العرب

انظر اليه كيف كان يهفو قلبه الى الوحدة العربية حتى ان لم يكتف بمصافحة سوريا ، بل صافح العرب كلهم حتى لايجد العدو في العرب خارجا على الجماعة فيستطيع ان يضرب بعضهم .

* * *

وهذا حافظ في عيد تأسيس الدولة العلية بفندق

الكونتنتال سنة ١٩١٦ يعرض في قصيدته للعصبية العربية فيحياويبارك غرسها ويزكيهاوينعى على الذين يعيبون عصبيتها يريدون أن يغلوا حدها ، ويحطموا سندها ، مع أن هؤلاء العائبين يتكالبون على التعصب والوحدة . ويحذر الشرق من ثعالبة الغرب مشبها لهم بالخمر تبدو في الكأس شهية محبوبة ، حتى اذا دخلت في الرأس طاحت بصوابه :

يقولون في هذي الربوع تعصب واي مكان ليس فيه تعصب
فياشرق ان الغرب إن لان اوقسا ففيه من الصهباء طبع مذوب
فخف بأسها في الراس والراس يصطلي
وخف ضعفها في الكأس والكأس تطرب

ويعمد حافظ بعد ذلك إلى إقناع الغرب ومحاولة وعظه بصروف الايام واخذات القدر :

فيا غرب إن الدهر يطفو بأهله
ويطويه تيار القضاء فيرسب
اراك مقر الطامعين كأنما على كل عرش من عروشك اشعب

ولو ان حافظا عاش الى اليوم ليرى ان المواعظ لم تعد تفلح في درء الطامعين لكف عن نصيحته للغرب ؛ واستصرخ قومه الى الدماء والسلب والحرب .

على انه رحمه الله لم يدعنا نتمسك بعتابنا له على ذلك ، فانه اكد في مناسبات عدة ان الكلمة للقوة ، وان نباح الكلاب لايقطعه الاسنة الحراب . فهو في حرب طرابلس سنة ١٩١٢ يقول :

طمع ألقى عن الغرب اللثاما فاستفق ياشرق واحذر ان تناما
واحملي ايتها الشمس الى كل من يسكن في الشرق السلاما
واشهدي يوم التنادى اننا في سبيل الحق قدمنا كراما

لم يعد حافظ اذن يهادن او يلاين او يعلق على غير القوة وكان شعره لقوة مناسبته لحوادثنا اليوم - حديث عهد قد قيل في هذه اللحظات التي نعيء فيها انفسنا لرد كل من تحدثه نفسه بالاعتداء علينا .

وغير عجيب من حافظ ان يكون طابع شعره هو القوة فانه كما قلنا ضابط حربي وطني ، حجته هي القوة يدع بها الغاصب ويمزق السالب .

ومن اقوى الأدلة على إيمانه بالقوة واعتماده عليها ، نشيده الذي الفه للشبان المسلمين . فقد عول فيه على اخذ الحقوق باليد واشعل الغيرة الوطنية بذكرى ايام المجد السالف والسلطان الواسع الوارف . ونفى نسبنا عن العرب ان لم ننجد بلادنا بالحديد والنار ونخلص حمانا من مخالب الاستعمار . . ان لم نفعل فالموت بنا احق .

يقول في هذا النشيد وكأنما فرغ من تأليفه اليوم ليسمعه الجحفل العربي الباسل الرابض في شرى فلسطين :

أعيدوا مجدنا دنيا ودينا وذودوا عن تراث المسلمينا
فمن يعنو لغير الله فينا؟! ونحن بنو الغزاة الفاتحينا
ملكنا الامر فوق الارض دهراً وخلدنا على الأيام ذكرى
أتى عمر فأنسى عدل كسرى كذلك كان عبد الراشدينا
جبينا السحب في عهد الرشيد وبات الناس في عيش رغيد
وطوقت العوارف كل جيد وكان شعارنا رفقا ولينا
سلوا بغداد والاسلام دين أكان لها على الدنيا قرين
رجال للحوادث لاتلين وعلم أيد الفتح المبينا
فلسنا منهم والشرق عاني إذا لم نكفه ريب الزمان
ونرفعه الى اعلى مكان كما رفعوه او نلقى المنونا

***

وبعد فأنت تلحظ في هذا النشيد ما اكدناه سابقا وهو ان حافظا لم يكن يتمنى لمصر وحدها ؛ او يخص بالذكر عزها ومجدها لأنه لم يرها الا عضوا في الكيان العربي الذي يتألف من الدول العربية ، فهو إذا تمنى شيئا ، تمناه للجسم كله ، واذا فخر ذكر مفاخر هذا الكيان العربي كله . . . لو عاش حافظ الى اليوم لقرّ عينا بالجامعة العربية . رحمه الله .

القاهره محمد محمد الحوفي

ليقرأها كل خائن

امن اجل ان يسلم الواحد تطل الدماء وتفنى الالوف
ويزرع اولاده الوالد لتحصدهم شفرات السيوف
امور يحير بها الناقد وتدمي فؤاد اللبيب الحصيف
وفي كل منزلة مأتم تشق به الغيد أزرارها

ايليا ابو ماضي